



كان القيد نفسه، وكان الشعب نفسه، وكان اليأس نفسه من تغيير سياسات النظام القمعية، وكان السكوت والخنوع أكثر سيعني بالضرورة خسائر أكبر وصعوبة أكبر في تغيير النظام مستقبلاً، وكان يعني كذلك تخلفاً أكثر ونهباً أعظم وسجوناً أكبر، وتسلطاً طائفياً أشد، ولم يعد الوضع ليحتمل، وكان هناك أية عرفة دورهم التاريخي، لذا كان لابد من الثورة.

لم يكن من الممكن التحضير المسبق على الورقة والقلم لكل الاحتمالات الممكنة، كما في كل ثورات العالم (والتي انتصرت بالجهد الأقل بكثير مما بذل في الثورتين) لأن أجهزة الأمن كانت بالمرصاد فقد بنت دولة استخباراتية تحبط أي تنظيم يريد التوسيع بالاستعداد. ولم تكن يد الأجنبي في الغرب أو الشرق هي الدافع أو المعلول عليه في ذهن الثوار لأنهما ثورتان وطنيتان. ولم ولن تقدم الثورتان أي معلومات أو تنازلات ضد وطنها للأجنبي، فهي ثورات وطنية بامتياز.

وقد اختارت الثورتان الطريق السلمي في البداية.

ففي الأولى وضح ذلك في بيانات النقابات وبعض المظاهرات، وفي الثانية وضحت في المظاهرات وبيانات الأحزاب والشخصيات الوطنية المستقلة، وكان النظام نفسه هو الذي أجبر عناصر الثورة على اتخاذ طريق العنف فالأولى ظلت تدعوا سلمياً للتغيير منذ السبعينات، أي منذ فض الاعتصامات السلمية في (مسجد السلطان في حماه بدمشق) وقتل 72 شهيد، ومسجد خالد بن الوليد باقتحامه وتدمير مدخله بالدبابات في حمص واعتقال المعتصمين، والمسجد الأموي في دمشق وتحطيم أبوابه بالدبابات كذلك واعتقال واتهام المعتصمين..) وآلاف النضالات الجزئية للشيوخ/ حسن

جبنكة ومروان حديد ومحمد علي مشعل وغيرهم من كل شرفاء المجتمع السوري.

نعم لقد سبق معركة الثمانينات نضالات سلمية مستمرة من الخطابات والمنشورات والنشاطات السياسية كذلك كإضراب المدارس الشامل في مدينة حماه والذي شاركت به حينها (عام 1964) واستمر النضال السياسي حتى 1976 دون أي جدوى بل وعلى العكس.

وفي الثانية ظل النضال السياسي منذ مذبحة 1982 في حماه حتى 2011 كذلك بدون جدوى، وكانت كل مرحلة وكل جريمة بمثابة تغذية تزيد عدد المعارضين، أي أن الأولى قد بدأت بالمظاهرات ثم تحولت إلى استعمال السلاح تماماً كما حصل بالأولى.

ولم تكن الرؤية الإستراتيجية في طريق الخلاص سهلة، فالانقلاب أصبح مستحيلاً والظاهرات مهددة بالإبادة المباشرة، والخوف مع الكره هو المزيج المضني المتصارع في قلوب السوريين، وهذا ما كان يدفع البعض ليحرقوا أنفسهم، ويتهتمهم بعض الناس بالجنون، وبأنهم يرمون أنفسهم للتلهكة عندما رفعوا الراية في جو من التصرّر السياسي، وعلى رأسهم الشيخ القائد الشهيد مروان حديد، لكنهم صمّموا ووضعوا دماءهم في سبيل الخلاص مهما أظلمت الطريق ومهما كانت النتائج.

وفي الثورتين لم تقوم الدول الأجنبية بالدعم بل ساعدت دولة العراق (في حكم صدام حسين) ببنادق، وتدريب وإيواء النازحين، وكان الإيواء في الأردن كذلك، وفي الثانية حصل بعض الدعم بالمال من دولة عربية وشعوب عربية. مع تأييد سياسي من معظم الدول العربية والشعوب العربية.

وكان الروس يرسلون الخبراء المتخصصين في قمع حرب العصابات للنظام في كلا الثورتين. كما كان المحتوى الطائفي هو العمود الفقري للنظام، بينما تجنبت الثورتان الطائفية، لذا لم تشنان حرباً إنتقامية مدنية على العلوين.

وكان تهم العمالة تنهال في الثورتين اللتين قيل أنهما حروب على نظام الممانعة، مع أن من أهم روافد الثورتين كانت النكمة على تسليم الجolan.

أما القيادة في ثورة الثمانينات (وما قبلها) فقد قادها نخبة من الإخوان المسلمين (بالاحاح الواقع المر الذي لا يطاق) مع تأييد خفي من مختلف التيارات الإسلامية، أما الجهات اليسارية فقد كان التأييد السياسي من الحزب الشيوعي جناح المناضل رياض الترك (المحدود العدد) للثورة المسلحة بقيادة الإخوان فنال 15 عاماً من السجن، ولم يكن القوميين دور يذكر ولا لبقية اليساريين فقد كانوا مصابين بمنغولية النظام لأنهم يحملون نفس الفكر اليساري القومي، ويلتهمون الامتيازات المفتوحة وبالملاءق التي يختارونها مقابل الشهادة بشرعية النظام وعدائه للأعداء بما يسمى بالجبهة الوطنية التقدمية، بينما قضى الآلوف من الإسلاميين على الأرض أو بالمشانق.

بينما قامت ثورة 2011 بعفوية ومن القواعد الشعبية، وليس من الأحزاب والجماعات. ولم يكن الإخوان هم القيادة بل من القيادة، كما وليس لهم تنظيم رسمي منفصل سابقاً هناك في سوريا (بسبب قانون الإعدام رقم 49) كباقي الأحزاب المعارضة المنعدمة في سوريا، لكنهم وبلا شك يملكون مؤيدین ومتعاونین وأنصار على شكل تيار أو تجمعات، وقد تشكلوا قبل وخلال الثورة، وهم جزء من الثورة مثل غيرهم، ولم يلعبوا أي دور إعلامي لخطف الأضواء والدعایة لأنفسهم، ولا خوف منهم.

وقد قامت ثورة 2011 من القواعد الشعبية بكل بساطة وعفوية، ومن الأسف للأعلى وتطور تنظيمها إلى لجان وتنسيقات وجيش حر.. فلقد ألهمنا ثورات تونس وليبيا ومصر واليمن أن الشعب إذا نهض بأكمله فسوف يسقط النظام مهما كان هذا النظام، وعلى هذه النظريّة قامت الثورة السورية.

أما عن هدف الثورتين وما قبلهما وما بينهما فهو:

الحرية والكرامة والديمقراطية والوصول إلى صناديق الاقتراع، وفصل السلطات والمساواة بين جميع المواطنين وقد وردت المطالب في الأولى من خلال البرنامج السياسي المعروف للإخوان آنذاك، ولم تكن ثورة إيديولوجية (وإن كانت عناصرها من القوى الإخوانية الانتقاء أو إسلامية منشأ عموماً)، ولنثبت إمكانية ذلك فنقول إن إخوان مصر شاركوا في الثورة ونحوها بالأغلبية اليوم وبلغت مقاعد الإسلاميين 70 بالمئة ولم يعلنوها دولة دينية، وكذلك الأمر في تونس)

لم تكن الثورة الأولى من صنع الخارج (عرض على القائد الشيف مروان حديد المساعدة المالية من العراق عند تشكيل تنظيمه فلم يقبل مع إننا كنا في ضائقه حتى في مصر في بيته، كما عرض عليه انقلاب يفصل المنطقة الشرقية وحلب فرفض بسبب إدخال إذاعة متنقلة عبر الحدود، ورأى فيها شبهة العمالة).

كما أنها اليوم نرفض تدخل أي جندي أجنبي على الأرض السورية.

أما في التسلیح ففي الأولى كان التسلیح بتبرعات كان يجمعها أنصار الشيف مروان حديد (وكان الشيف مروان يقول إن السلاح الحقيقي هو الذي سنأخذه من يد العدو) إلا أن تنظيم الإخوان حصل عليها بعد ذاك من العراق (خلال حكم صدام حسين المستقل عن إرادة الغرب، والذي قضى على أيديهم) وقد أعطى الإخوان السلاح بدورهم لتنظيم الطليعة كذلك) وبمعرفتي وبعد استشهاد الشيف مروان حديد فقط) لكن الكميات ظلت محدودتان بسيارات بيك آب عبر الصحراء من العراق، أما النوعية فلم تكن موجودة. وقد نفذت الذخيرة خلال المعارك في حماه عام 1982 لقلتها.

وفي الثانية كان السلاح من تبرعات السوريين والشعب العربي لشراء السلاح ولم يصل بعد أي سلاح أجنبي للمعركة.

أما عن الخسائر في الثورتين فأقول:

إن عدد الشهداء وكذا كمية الهمد قد تقاربنا اليوم، لكن الفرق هو أن القتل في مجازر حماه كان خلال 24 يوماً وفي مينة حماه معقل الثورة، فقد قتل 5 إلى 10 بالمئة من عدد سكان المدينة، وكذا كان هناك الشهداء من كل المدن السورية، في السجون أو في مجازر تدمر والجسر وسرمدا والمشاركة.. أما اليوم فهي الخسائر نفسها تقريباً، ولكن على مستوى سورية كلها....

أما هدم المساجد فقد هدم 55 مسجداً وكنيستان تدميراً كاملاً بوحدات التفجير دون أي سبب قتالي، بعد أن اصطاد اللواء 47 المقيم جانب المدينة (دائماً) كل المأذن تقريباً منذ الساعة الثامنة والنصف صباحاً، أما اليوم فالقصف يستهدف المساجد بتوسيع بالقصف، لكنه لا يوجد إحصاءات.

أما السجون فقد كانت هي النهاية للكثير من الشرفاء، وكان النظام في الأولى ينفذ مجموعات الإعدام مرتان في الأسبوع ولفتره طويلة من الزمن. وكانت مجزرة تدمر ضد الإخوان، والتي قتل فيها بين 800 إلى 1200 شهيد،

أما اليوم فإن النظام ينفذ الإعدام الجماعي كذلك لكنه ينكره.

إن شدة القتل تبين لنا أن النظام كان وما يزال يرى أن المواطنين أعداء له، كما أن الشعب أصبح يرى أن النظام عدو له، وهذا ما كان في الثورتين كذلك، وهذا ما يفسر القتل الجماعي الكبير للشعب من قبل النظام في الثورتين. لكننا يجب لأن ننسى أن نضال أبناء وأقرباء ضحايا الشهادات في كل مدن سوريا كانوا وقوداً لثورة 2011 في كل مكان من سوريا،

ففي حماه مثلاً:

خرجت المظاهرة المليونية الكبرى في تاريخ سوريا (وأشكر المناضل الساروت ومن شارك في جمعة يا حماه سامحينا) ولذا وضع النظام لها 126 حاجزاً مع لوائين عسكريين وعدة أفواج لشلها وهي لا تزال حتى اليوم) وكذا قام أقرباء الضحايا

في حمص تدمر وحلب والجسر وسرمدا وكل الشرفاء اللذين أغضبتهم هذه المجازر الهائلة في الثمانينات.

لكن الفرق الوحيد هو أن الشعب كله (وليس الإخوان وأنصارهم) في هذه المرة أسقطوا جدار الخوف، وصمموا على الخلاص، وهذه هي الجولة الأخيرة للصراع وكسر العظم بيننا وبينه خلال 50 عاماً، وقد قام الشعب كله فيها قومة رجال واحد وبوفي من ثورات الربيع العربي.

لقد كانت الثورتان من كل المدن والمناطق لكن النظام قام في الأولى بتصفيتها منطقة (ويشهد الوجود الواسع لأبناء المهاجرين في الأردن على ذلك حتى اليوم منذ الثمانينات) إلى أن استفردوا بحمامة في المذبحة الكبرى.

لكن الثورة الأولى كانت معظمها في الطائفة السنّية فقط لأن الطوائف عادتها بتأثير من النظام ودعاته (عدى أفراد فقط من **أعضاء التحالف الوطني لتحرير سوريا في العراق**)

إن التضحيات الهائلة من أجل الخلاص في الثورتين تبيّن مقدار الضيم الكبير الذي وقع على الشعب السوري، ففي الأولى قتل في حماة وحدها عام 1982 ما هو 84 بالمئة من التنظيم القتالي الموحد للطليعة والإخوان (في إحصاء أجريته بنفسي)، ورجعت بعض المجموعات للقتال مرة ثانية عبر حدود العراق ومنها مجموعة البطل أبو مصعب الطيّاب، ومجموعة خط البترول وغيرها و75 مناضل من كل مدن سوريا تدرّبوا ثم نزلوا للقتال عبر تركيا (وبدون علم حوكّمتها) بعد مجزرة حماه فاعتقلوا جميعاً بعد دخول سوريا بخدعه من شخص معروف، نعم لقد غادر البعض في الأولى وهم من مارسوا السياسة، لكنهم لم يكونوا من التنظيم المسلح.

واليوم يساهم مقاتلو الجيش الحر وتواضعه في القتال الشجاع ولا يوجد إحصاءات بعد لعدد المقاتلين الشهداء، ونرجو من الله السلامة لهم.

كما أن القتل من عامة الشعب في الثورتين لم يكن له مبرر، فهو انتقام وردع الشعب عن التأييد، وكان الرصاص الذي اخترق الأجساد هو رصاصات السلطة، ولم يكن رد الفعل مساوياً للفعل، كما كانت مطالب الشعب محقّة بالحرية والكرامة كما هي اليوم، ولم تكن ثورة تستهدف طائفة العلوّيين، بل تستهدف من كان منهم بالسلطة ويمارس الإجرام، وكانت معظم عمليات الاغتيال والاعتقال تتم ضد المسؤولين العلوّيين لأنهم كانوا هم معظم المُتحكّمين بالأمن وعملياته الإجرامية، لذا كانت نسبتهم في الاستهداف مترافقة مع نسبتهم بالسلطة وكما هو اليوم كذلك (راجع المقالات الثلاث بعنوان الطائفيون السطّويون لنفس الكاتب)

لقد خاضت الثورتان حرب المدن، لعدم توفر المعايير كالجبال والغابات وكان هناك مقاتلون يكمنون في جبل الزاوية في الأولى... لكن حرب الأرياف اليوم هي أوسع من ذي قبل. ويسبّب الثورات المتعددة (وفتح الشوارع السياسي) في مدينة حماة لم يعد في المدينة أحياً قديمة تصلح عملياً للقتال فيها.

أما التمويل فقد كان من التبرعات من الإخوان السوريين في الخارج (حيث كان كل شخص يدفع على الأقل مرتب شهر في السنة) كما هو الآن، وقد وصلت تبرعات من أهالي وجماعيات بعد مجزرة حماه الكبرى.

الإعلام والاتصالات:

لقد كانت الاتصالات أكبر مشكلة في الثورة الأولى وخاصة عام 1982 وكان الإعلام كارثي التأثير، وشوه سمعة الثورة، وكانت الأقمار الصناعية الأمريكية تصور ما يحدث، لكنها تركت حماة تباد بدون أضواء لأن عناصرها هم أعداء إسلاميون.

كما إنه لمن الإنصاف والاعتراف بالحق أن نعتبر أن كل نضالات الشعب السوري هي أجزاء من ثورة تاريخية واحدة طويلة خبت ثم قامت...، وتجاوزت بذلك الزمن والمناطقية والحزبية والأنانية، فتحية لكل الأحرار الذي قتلوا على يد هذا النظام، ولكل من قاتل هذا النظام بالسلاح أو الكلمة أو القلم، ولكل من اكتوى بسياطه، أو أقام في سجونه رحراً من الزمن، وما

أكثرهم! فلاتخسوا الناس أشياءهم.

بعيني رأيتم وسنيأً عشتها معكم أيها الصابرون المحتسبون في سجن المزة العسكري أواخر السبعينات، ولن ترى عيني معظمكم بعد ذلك، فإلى جنان الخلد أيها الأبطال الشجعان، واليوم أرى عبر الشاشات عذابات أكثر لهذا الشعب الأبي الكريم، كما أرى نضالاته وتضحياته وتدمع عيني مرات باليوم على ضحاياه وعذاباتهم، فاليكم جميعاً حبي واحترامي وتقديري أيها المجاهدون العظام.

لقد كان إجرام النظام الهائل من آل الأسد في الثورتين، لكن الفرق أن المجرم في الثورة الأولى هو حافظ، وفي الثانية ابن نطفته النّنة بشار.

كثير هم الذين ضحّوا واستشهدوا في التاريخ ولم يروا الانتصار (كالبطل عمر المختار).
لكننا في هذه المعركة النهائية سنتنصر بقوة الله المقتدر وسنرى الانتصار بعون الله.

المصادر: